

سلسلة تحليلات الحرب والاستعمار

الحرب والاستعمار: مجدداً ودائماً

فراس جابر



كانون ثاني 2024

سلسلة تحليلات الحرب والاستعمار
تصدر عن مرصد السياسات الاجتماعية والاقتصادية

المحرر المسؤول: فراس جابر

تحليل (1):

الحرب والاستعمار: مجدداً ودائماً

إعداد:

فراس جابر

كانون ثاني 2024

مرصد السياسات الاجتماعية والاقتصادية

5 شارع السهل، رام الله - فلسطين

هاتف: 02-2955065

البريد الإلكتروني: almarsad@almarsad.ps

الموقع الإلكتروني: www.almarsad.ps

جميع الحقوق محفوظة ©

مرصد السياسات الاجتماعية والاقتصادية

2024

لماذا هذه السلسلة؟

تسعى سلسلة تحليلات الحرب والاستعمار إلى وضع حرب الإبادة الجماعية، التي ما زالت تَشَنُّ أساساً على القطاع، ضمن فهم أعمق وأوسع، بحيث يشتبك هذا الفهم مع الشبكة المعقدة من المفاهيم/ النظريات والعلاقات والمصالح التي تقوم بأدوار وظيفية وأيدولوجية محددة لإدامة استعمار الغرب، بما ذلك الاحتلال "الإسرائيلي". كما تسعى إلى توضيح موقع هذا الاحتلال ووظيفته ضمن هذه الشبكة، بحيث نُقارب هذه الحرب من مفهوم استعماري، باستخدام الأدوات التاريخية والجدلية والنقدية، بما ينتج تحليلاً يربط بين موقع هذه الحرب وبين الممارسات الاستعمارية التاريخية.

تصدر هذه السلسلة عن مرصد السياسات الاجتماعية والاقتصادية وبمساهمات عدد من الباحثين/ات من شتى الحقول المعرفية والنظرية.

الاستعمار: لماذا الآن؟

تناول قضايا الحرب والاستعمار ينطلق من الرّخم الهائل المتولّد من أحداث ما يُعرف بالسّابع من تشرين أول/ أكتوبر 2023، إذ ما بدا أنّه هجوم للمقاومة الفلسطينيّة على مواقع عسكريّة للاحتلال "الإسرائيلي"، أي موجة صغيرة، سرعان ما كبر ليُشكّل موجات مُتلاحقة كُبرى لم تهدأ حتّى اللّحظة، وحتى ينقشع غُبار المعركة الّتي تدور رحاها الآن، والّتي حوّلتها الاحتلال لممارسات "كُبرى" لإبادة الفلسطينيين الجماعيّة، لا بد من تناول موقع هذه المعركة ضمن قضايا الحرب والاستعمار، الّتي لم يتم تناولها بالشّكل الكافي، لعلّها تُلقى ضوءاً على موقع القضية الفلسطينيّة ضمن المنظومة الغربيّة للهيمنة والاستعمار.

لعلّه من المعتاد جدّاً، أن تبدأ أي دراسة تتناول القضية الفلسطينيّة بالتأريخ لمؤتمر بازل لعام 1897 والمنعقد في سويسرا، والّذي اعتبر المؤتمر التأسيسي للمنظمة الصّهيونيّة، وبالتّالي الحركة الصهيونيّة وأهدافها المتمثّلة في انتزاع فلسطين من أهلها الأصليين لصالح إنشاء "وطن" لليهود المنتشرين في صقاع العالم، وتناول تأثيرات هذا المؤتمر الّتي أدّت إلى النكبة الفلسطينيّة عام 1948، ولكنّه من غير المعتاد تناول السّياقات التّاريخيّة والفكريّة والسّياسيّة السّابقة لهذا المؤتمر، والتي ساهمت في التأسيس لهذا المؤتمر وما بعده.

إن تناول السّياق التّاريخي لما قبل مؤتمر بازل يستطيع أن يُعطي عُمقاً لعلاقة الاستعمار الأوروبي (بضمينه النّسخة الأمريكيّة الأحدث) بإنشاء نسخة استعماريّة خاصّة سُمّيت بالحركة الصّهيونيّة، وبينما ينظر العرب وبضمنهم الفلسطينيون إلى مصطلح صهيونيّة على أنّه مصطلح استعماري، ينظر الأوروبيون له على أنّه مُكافئ لمصطلحات "التّنوير والحداثة والديمقراطيّة"، أي أنه جزءٌ من منظومة القيم الأوروبيّة لعصر ما بعد النّهضة، وهذا يعني بالضرورة وجود تشابكات تاريخيّة مع مساهمات يهوديّة - صهيونيّة ساهمت في استدخال الصّهيونيّة ضمن منظومة القيم الأوروبيّة/ الغربيّة.

لا يكفي، حسب ادّعاء هذا التّحليل، الاكتفاء بربط الصّهيونيّة بالاستعمار الغربي، رغم أنّه ربط عضوي، لأنّ هذا الرّبط يفسّر وحدة المصالح، والأدوار الوظيفيّة، ولكنّه لا يُفسّر التّضامن القيمي على مستوى الحضارة الغربيّة مع الحركة الصّهيونيّة، هذا التّضامن الذي يجد أنّ هجوماً على الاحتلال يُعدّ هجوماً على الغرب بأسره، ويستدعي تدخلاً عسكريّاً من أكثف التّدخّلات لصراع خارج أوروبا، وكأنّه داخل حدودها. ولا يكفي أيضاً، حسب ادّعاء هذا التّحليل، الحديث عن مؤتمر بازل كأنّه حدث مُنقطع عن سياقه التّاريخي، بوجود تطوّرات تاريخيّة عبر قرون من الاستعمار الأوروبي ساهمت فيها الجاليات اليهوديّة وقادتها في بلّورة توجّهات الاستعمار، والاستفادة من غنائم الاستعمار الماديّة لمراكمة ثروات العائلات اليهوديّة والدّول الأوروبيّة على حد سواء، مع وجود مساهمات أخرى فكريّة مثل الأعمال المبكّرة لـ "منشي بن إسرائيل" المولود عام 1604، وتحديدًا كتابه "أمل إسرائيل" المنشور عام 1650، وغيره آخرين، فيما يبحث كتاب صدر عام 2012 في علاقة الصّهيونيّة بالاستعمار، دون القدرة على حسم العلاقة بينهما بشكلٍ واضح¹ حسب ادّعاء الكتاب.

¹ Nadia Malinovich, "Colonialism and the Jews," *Journal of Fondazione CDEC*. (2017): 12. Website: <https://n9.cl/ugnew>.

إنّ وجود علاقات راسخة ومُتبادلة بين الصّهيونيّة والاستعمار الأوروبي، لا تنفيها بعض حالات النّزاع والصّراع بين العائلات اليهوديّة مع أنظمة الحكم الأوروبيّة، ولكنّه صراع داخل منظومة الاستعمار الواحدة، أي لا يصل لحالة تناحر، ودون القفز عن حقبة ألمانيا النّازيّة كمحاولة من البعض لنفي العلاقة الوطيدة، إن لم تكن عضويّة بين الصّهيونيّة والاستعمار. وحتىّ إن لم يكن هذا كله كافياً، فإنّ أكثر من 125 عاماً من الدّعم الأوروبي الغربي المستمر للحركة الصّهيونيّة منذ مؤتمر بازل وحتىّ الآن يكفي للتدليل على أنّ الصّهيونيّة ساهمت في إنتاج المنظومة الاستعماريّة، كما ساهمت الأخيرة في إنتاج الأولى.

يحاول هذا التّحليل أن يساعد في فهم أبعد من آنية مواقف الدّول الأوروبيّة والولايات المتّحدة إلى نقطة أبعد تفسّر الدّعم المطلق لكافة هذه الدّول وعلى اختلاف أنواعها لما يُسمّى "حق إسرائيل" المطلق في ارتكاب جرائم الحرب والتّطهير العرقي والإبادة الجماعيّة.

الاحتلال كاستعمار وفلسطين كبلد خاضعة للاستعمار:

على بدهاءة العنوان لنا، ولكنّه يحمل سمات إضافية، نستطيع النّظر إليها من خلال الرّبط مجدّداً ودائماً بين الاستعمار الأوروبي وبين الصّهيونيّة كحركة استعماريّة (واستيطنيّة) تقوم باستعمار فلسطين، وكذلك بين الرّبط بين الصّهيونيّة كاستعمار وبين "انساق" منطقتها وخطابها خلال حرب الإبادة الجماعيّة على القطاع مع الخطابات الاستعماريّة التّاريخيّة، هذا الخطاب الذي انطلق دون قيود في اللّحظات الأولى بعد السّابع من تشرين أول/ أكتوبر لمديات هائلة، وقد فاجأت بفداحة الكلمات والأوصاف التي قيلت بحقّ الفلسطينيين/ات العالم كلّ تقريباً. خطاب كشف وجهها الحقيقي من حيث أنّها منظومة احتلال ترى في الفلسطينيين أجساداً لا يتمتّعون بأيّة حقوق، فهم أجسادٌ "غير بشريّة" بأقلّ تعبير، وهل يحقّ لغير البشر وطن وأرض وحقوق وحرّيات!

نستدعي هنا ما قيل عن الهنود الحمر، سكّان أمريكا الشماليّة الأصليّين، وكذلك قبائل الهنود الحمر في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبيّة (اللاتينيّة بعد استعمارها) كبشرٍ "متوحشّين" بحاجة إلى "مساعدة" العرق الأبيض حتىّ يتمّ "عتقهم من الوحشيّة والجهل وصولاً إلى تبنيّ قيم ونمط حياة الرّجل الأبيض"، وحتىّ يتمّ هذا "العتق" جرى ارتكاب أكبر إبادة جماعيّة ضدّ الهنود الحمر في أمريكا الشماليّة، حتّى كادوا يُبادوا عن آخرهم، ناهيك عن القضاء على حضارتهم ونمط عيشتهم وثقافتهم وغيرها، لأنها بنظر الاستعمار "أقل" تطوّراً وحدائث من القيم الأوروبيّة/ الغربيّة، هكذا إذاً كان الحال، وهكذا إذاً يستدعي قادة دولة الاحتلال مصطلحات مشابهة، إن لم تكن مرعبة أكثر، لنفي إنسانيّة الفلسطيني، ونفي حقوقه، وحقّه في الوجود، ويتمّ إعادة تعريف الخير والشر، على كون الخير هو مفهوم يمتلكه المحتل الصّهيوني، وبالطّبع يجب أن يتفهّمه المستعمر القديم/ الجديد الأوروبي، فهو لا شك يتّفق بضرورة إنزال أشدّ أنواع العقاب والقتل بمن يجرؤ على المقاومة.

قد نُجادل بالقول، إنَّ ما حصل مع الهنود الحمر كان في عصورٍ غابرة، لم يكن لحقوق الإنسان فيها هذه السطوة والنَّفوذ، وشرعية إقرارها من كل دول العالم المنضوية ضمن الأمم المتَّحدة، وأن هناك اتِّفاقيات تُنظِّم حتى الحروب بين الأطراف المتحاربة وحقوق المدنيين خلال الحروب، وهناك أيضاً اتِّفاقية تمنع الإبادة الجماعية، وأخرى تمنع التَّطهير العرقي، وكل هذا صحيح تماماً، ولكنَّه خارج السِّياق!

إنَّ السِّياق الحقيقي أنَّ منظومة الأمم المتَّحدة بأكملها وبضمنها القانون الدولي والقانون الدولي الإنساني، على أهمية مضامينهما، إلا أنَّهما يُوظَّفان فقط لصالح الغرب وهي القُوى المنتصرة في الحرب العالميَّة الثانية، بينما في حالة دول الجنوب، وبضمنها فلسطين، كحالة خاصَّة ومكثِّفة من الاحتلال الاستيطاني الإحلالي الاستعماري، تخرج خارج دائرة تطبيقات هذه المنظومة والقوانين، حتَّى لو صوّتت كل دول العالم لصالح قرار وقف إطلاق نار في قطاع غزَّة، فلن يحصل ذلك ما دامت القوى الاستعماريَّة ماضية في دعم حرب الإبادة الجماعية "رئيسة الاتحاد الأوروبي هرعت لتل أيبب لإعطاء الضوء الأخضر للإبادة ولا تقوى على نطق كلمة غزَّة، رفعوا أعلام إسرائيل على مبانيهم ولم يرفعوا علم فلسطين. لأنهم استعماريون لم يتغيروا و90% من شعوبهم مع فلسطين"².

هذا هو القول الفصل، المنظومة تمَّ تصميمها وتطويرها وتخليقها لخدمة الدَّول الغربيَّة دون سواها، ولخدمة مصالحها، حتَّى لو تطلَّبت تقديم تنازلات هنا أو هناك، ولكنَّها في القضايا الجوهرية، وفلسطين كذلك، فإنَّ هذه المنظومة تتعطل وتعمل فقط لصالح الغرب، فما لا تحقِّقه المعاهدات الدوليَّة تحقِّقه القُوَّة والمزيد من القُوَّة "كان الغرب في غزو روسيا لأوكرانيا يحاول إنقاذ علاقته مع دول الجنوب التي لا تصدِّق خطابه بشأن القانون الدولي وتراه نفاقاً، ولكنَّ عملية طوفان الأقصى في السَّابع من أكتوبر/تشرين الأول في "إسرائيل" والأحداث التي تلتها في قطاع غزَّة قضت على هذه الجهود، لتُصبح القطيعة بين الطرفين كاملة ولا رجعة عنها"³.

تقديم تعميم كهذا أمرٌ خطر، أولاً تجاه الغرب، وثانياً تجاه منظومة الأمم المتَّحدة بما فيها المعاهدات الدوليَّة، إلا أنَّ قراءة لمعطيات ثلاثة أشهر من حرب الإبادة الجماعية تُؤكِّد أنَّ الغرب يقف متَّحداً خلف دولة الاحتلال، وأنَّ حتَّى أعلى الأصوات رفضاً داخل أوروبا لم تستطع أخذ إجراء واحد ضدَّ دولة الاحتلال حتَّى الآن، فيما قام الأمين العام للأمم المتَّحدة بتفعيل المادة "99" دون جدوى، أي أنَّ أعلى "تنبيه" أممي من أعلى مسؤول أممي لضرورة إيقاف ما يحصل لم يُوقفه أبداً.

إن لم نستطع قتلهم فيجب تهجيرهم!

مبَررات الاحتلال لحرب الإبادة الجماعية على القطاع كانت جاهزة، فمن الاستيطان الاستعماري منذ وعد بلفور، مروراً بالنكبة التي أطاحت بغالبية الشَّعب الفلسطيني خارج وطنه، واستخدام المجازر وشتَّى الجرائم لتأسيس دولة استيطانية استعماريَّة

² ميك والاس، النائب الإيرلندي بالبرلمان الأوروبي، تغريدة على منصة أكس. الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/i4hmn>.

³ "بسبب غزَّة.. لوبس: القطيعة بين الغرب ودول الجنوب لا رجعة عنها،" الجزيرة نت (3 كانون ثاني 2024). الرابط الإلكتروني: <https://rb.gy/f280fw>.

على أرض فلسطين التاريخية ليس ببعيد، مروراً بنظام الحكم العسكري للفلسطينيين داخل أراضي 48، ومن ثم الاحتلال العسكري لأراضي الضفة الغربية وقطاع غزة، وصولاً إلى التوصيفات "المعاصرة" لها بأنها دولة فصل عنصري، حيث "يُظهر تحقيق جديد لمنظمة العفو الدولية أنّ إسرائيل تفرض نظاماً من القمع والهيمنة ضدّ الفلسطينيين في جميع المناطق الخاضعة لسيطرتها: في إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة، وكذلك ضدّ اللاجئيين الفلسطينيين، من أجل مصلحة اليهود الإسرائيليين. ويرقى هذا النظام إلى مستوى الفصل العنصري، الذي يحظره القانون الدولي".⁴ لكنّ هذا التوصيف، على دقته، لا يُعالج تعقيدات الحالة الاستعمارية التي تخضع لها فلسطين، لأنّه أداة واحدة فقط من ترسانة أدوات دولة الاحتلال، فكل شيء يمكن استخدامه ومباح لاستمرار هذه الحالة الاستعمارية ومكاسمها وأدائها لوظيفتها القسوى في تمزيق العالم العربي واحتلال قلبه. ما نشاهده الآن، هي حرب عالية الوتيرة والقتل، ولكن خلال كل السّنوات الماضية بما فيها سنوات "السلام" المدعاة كانت حرباً منخفضة الوتيرة، أي تمّ توظيف القتل بحد أدنى مع بقية أدوات الاستعمار المعروفة من استيطان واعتقال، وسيطرة على الموارد، وبناء منظومة مادية وعسكرية وقانونية تديم حالة الاحتلال والاستعمار، أي أنّ الفلسطينيين في حالة حرب من طرف واحد، طبعاً الحرب يشهدها الاحتلال عليهم دون هوادة، وتُصبح المقاومة، كما مقاومة الهندي الأحمر، مدعاة للإبادة الجماعية. تترجم هذه الحرب معاناة الشعب الفلسطيني الدائمة والمستمرّة مع الاحتلال، فيتمّ تكثيف قرن من الاستعمارين البريطاني والإسرائيلي "في عدّة أشهر، فتُفاجئ شعوب العالم، وتكتشف أنّ هناك من يمارس جرائم الحرب دون حسيب أو رقيب، وتُدعم هذه الجرائم من حكومات دولهم، وتُقمع حرية تعبيرهم عندما تنتقد ممارسات الاحتلال الإجرامية، مما يدلّ على أنّ حتى حريات الشعوب الغربية لها سقف محدّد لا يمكن تجاوزه، وعندما تتعارض رغبات وآمال هذه الشعوب مع المصالح الاستعمارية، فيمكن سحق رغبات هذه الشعوب بكلّ بساطة.

حقّ الدّفاع عن الاستعمار:

ردّد القادة الغربيّون، وقادة الاحتلال على مسامعنا ولشهور طوال، عبارة "حقّ إسرائيل في الدّفاع عن النّفس"، هذه العبارة التي صدحوا بها دون تردّد، ودون كلل أو ملل، ولكنّ وعلى الجهة المقابلة، استمعنا لهذه العبارة، غير قادرين بأكثر حالاتنا انفتاحاً وتركيزاً على فهم كنه هذه العبارة، وحاولنا تقليدها والرجوع إلى المعاهدات الدّولية والقوانين الدّولية ولم نجد لها تفسيراً واحداً، إذا هي شريعة الغرب في سنّ قوانينه، ومنها حقّ الاستعمار في الدّفاع عن نفسه، وحقّه في سحق حرية أي شعب أمام مصالح الاستعمار وتكوين ثرواته، واستغلال ثروات وأراضي الشعوب المستعمرة، وبضمها فلسطين.

إنّ الطّبيعة الانتقائية لتطبيقات القانون الدوليّ الإنساني، والمعايير المزدوجة لحقوق الإنسان، وممارسات الدّول الغربية تُؤشّر على فداحة اختلالات النّظام الدوليّ، وأنّه مُصمّم بشكلٍ حتمي للدّفاع عن مصالح هذه الدّول أمام كافة شعوب الأرض الأخرى،

⁴ "نظام الفصل العنصري (أبارتهايد) الإسرائيلي ضد الفلسطينيين،" منظمة العفو الدولية (1 شباط 2022). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/b4t3k>.

وحتى مع وجود قوى أخرى مثل روسيا والصين، لها مقاعد دائمة في مجلس الأمن الدولي، ولها توجهات أخرى، فلم تستطع أن تغير من مسار حرب الإبادة الجماعية المرتكبة، والتي بُنت في كثير من الأحيان بث حي ومباشر.

أرسل الغرب رسالة واضحة جداً أنّ القانون الدولي والقانون الدولي الإنساني، وحتى بعض القوانين الوطنية لبعض الدول التي يمكن أن تتسع للمحاسبة على جرائم دولية، تبين أنها مجرد شكليات يمكن تجاوزها عندما تقتضي الضرورة، لصالح الدفاع عن جرائم الاحتلال. كما نرى في محكمة الجنايات الدولية، التي لم تستخدم ضد الاحتلال.

قفز كريم خان، المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية عن كرسي مكتبه بسرعة، وجاء بأول رحلة قادمة إلى دولة الاحتلال للقاء عائلات المحتجزين في قطاع غزة بناءً على طلبهم وطلب حكومة الاحتلال، وحتى "يوازن" أهداف زيارته غير التحقيقية زار رام الله، والتقى بعض مسؤولي السلطة فيها، ولكنه كما نعلم فإن زيارته لرام الله غير مهمة، فمنذ عام 2021 فتح خان تحقيقاً في جرائم الحرب المرتكبة من قبل الاحتلال ضد الفلسطينيين، وحتى الآن لم يتحرك التحقيق، ولكنه بعد أقل من شهر واحد من هجوم السابع من تشرين الأول استطاع القول أنه "شاهد جرائم محتملة"؛ هذه خلاصة قدرة المحكمة الجنائية الدولية النظر بعين واحدة، وغض النظر تماماً عن جرائم يرتكبها الاحتلال وما زال منذ أكثر من 75 عاماً، رغم إصدار نفس المحكمة مذكرة اعتقال بحق الرئيس الروسي بوتين تحت مزاعم ارتكاب جريمة حرب متمثلة في ترحيل الأطفال ونقلهم بصورة غير قانونية.⁵ ورغم ارتكاب الاحتلال شتى أنواع جرائم الحرب وجرائم التطهير العرقي وحتى الإبادة الجماعية، وحتى الآن لم يعلق المدعي العام على هذه التهم التي وجهت للاحتلال خلال وبعد زيارته، إذ أنّ هدف زيارته يكمن في إرضاء المنظومة الاستعمارية.

إشارة أقدم من زيارة مدعي عام المحكمة الجنائية الدولية تتمثل في صدور فتوى محكمة العدل الدولية في لاهاي بناءً على طلب الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام 2004 بأنّ الجدار الذي بناه الاحتلال على الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967 هو غير قانوني وتطلب من دولة الاحتلال إزالته⁶، ورغم مرور ما يقارب العقدين على هذه الفتوى إلا أنّ الجدار ما زال مكانه وقد توسّع بشكل كبير ليلتهم أجزاء كبيرة من الضفة الغربية.

إدّاً منظّمات مثل مجلس الأمن، الأمم المتحدة، المحكمة الجنائية الدولية، محكمة العدل الدولية، إضافة لكثير من منظّمات الأمم المتحدة والمنظّمات الدولية تقف عاجزة أمام محاسبة دول الاحتلال أو إيقافها عن ارتكاب الجرائم المستمرة ضدّ الشعب الفلسطيني، وأصبح هذا العجز مزمناً خلال حرب الإبادة الجماعية التي يشهدها قطاع غزة الآن، من خلال عدم قدرة كل هذه المنظومة على إدخال المساعدات الغذائية والدوائية وغيرها لسكان قطاع غزة.

العلاقات الدولية: المصالح والاستعمار والقوة:

قامت العلاقات الدولية أساساً على المصالح وتوازنات القوى، وتمثيل المصالح والقوى في منظومة العلاقات الدولية والمؤسسات الدولية، إلا أنّ الدول الغربية حاولت خلق شرعية لهذه المنظّمات من خلال حث الغالبية العظمى من دول العالم

⁵ "المحكمة الجنائية الدولية تصدر مذكرة توقيف بحق الرئيس الروسي فلاديمير بوتين"، الأمم المتحدة (17 آذار 2023). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/ohkw1>.

⁶ "نص قرار محكمة العدل الدولية في لاهاي بشأن جدار الفصل العنصري"، مؤسسة الدراسات الفلسطينية (9 تموز 2024). الرابط الإلكتروني: <https://rb.gy/zpy19h>.

على الانضمام لهذه المنظمات الدولية، بما أضفى عليها طابع الإجماع الدولي. غير أنّها تجاوزت النظرة السطحية للدول المنضوية في إطار منظومة الأمم المتحدة أو غيرها نجد أنّ صنع القرار يتم من خلال إعطاء وزن كبير لصالح الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، إذ تستطيع لوحدها تعطيل قرارات أو فرض قرارات وأجندات مخالفة لرأي الأغلبية العظمى من شعوب ودول العالم، كما حصل أكثر من مرة عندما صوتت ضدّ قرار وقف إطلاق النار داخل الجمعية العمومية للأمم المتحدة إضافة للفيديو داخل مجلس الأمن، والذي استخدمته 114 مرة منذ تأسيس الأمم المتحدة، 80 مرة لصالح "إسرائيل"⁷ أي أكثر من 70% من مجمل قرارات الفيديو.

لا يبدو أن استخدام هذا الحق يخدم المصالح الأمريكية دائماً، بل كثيراً ما جاء بآثار عكسية، نتيجة استفزاز الشعوب العربية والإسلامية ضدّ الولايات المتحدة، ولكنها نادراً ما اقتصرت لهذا الاستفزاز، لأنّ المصالح الأمريكية تعني استمرار الهيمنة الغربية على المنطقة العربية من خلال استخدام دولة الاحتلال كأداة للتمزيق والتخويف، وأخيراً عبر توسيع دورها كوكيل أممي لتوفير الحماية لبعض الأنظمة العربية عبر ما سمي "باتفاقيات إبراهيم".

تلاقي الاستعمار والصهيونية يجعل من التأثير على العلاقات الدولية أمراً مشابهاً بمواجهة معسكر كامل، إذ كما رأينا من تجنّد الولايات المتحدة والغرب لدعم حقّ الاحتلال في ارتكاب جرائم الحرب وجرائم الإبادة الجماعية، الأمر الذي يعني أنّ تغيير العلاقات الدولية يتم فقط عبر امتلاك القوة، لا عبر الإجماع أو احترام المواثيق الدولية.

الحرية تُقاتل الاستعمار:

لا داعي للإشارة إلى أي نص من نصوص المواثيق الدولية لتأكيد حق الشعب الفلسطيني في الحرية وفي المقاومة لانتزاع هذه الحرية، وفي حقّه في تقرير مصيره، وفي السيادة على أرضه وحدوده وموارده وسكّانه، إذ أنّ الحرية فطرة بشرية تسبق كافة المنظمات، وإذ فرض على الفلسطينيين احتلالاً إحلاليّاً استيطانيّاً استعماريّاً متعدّد الأوجه والأبعاد مدعوماً بقوة الغرب الغاشمة فإنّ انتزاع الحرية عبر المقاومة تبدو الطريقة الوحيدة للفلسطينيين للوصول إلى حريتهم وخلصهم.

برع الغرب في توظيف الثنائيات للوصول إلى تصنيفات وتقسيمات "سهلة"، حتّى يمكن القول أنّها أصبحت ثقافة غربية معتمدة داخل السياسة الدولية، فمنذ توظيف بوش الابن لمفاهيم (محور الخير مقابل محور الشر) ومروراً بمفوض الاتحاد الأوروبي الذي رأى أوروبا حديقة وبقية العالم غابة متوحّشة، وانتهاءً بنتنياهو الذي عبّر عن أكثر من ثنائية لتوصيف ما يجري، ولكنّ المقولة الأبرز كانت (النور مقابل الظلام)، طبعاً يتمثّل "الإسرائيليون" صورة النور ومعانيه، فيما يُسقط "الظلام" على الفلسطينيين بما يحمله من معاني ودلالات.

هكذا ببساطة، يرانا الاستعماريّون، ذوات غارقة في "الشر والظلام والوحشية"، فيما يروا أنفسهم "أبراراً نوريين"، يقتلون شعوب الأرض لتخلصهم من "بؤسهم"، كما في دعوة المتطرّف سموتريش لفتح باب "الهجرة الطوعية" للفلسطينيين من

⁷ كم مرة استخدمت أمريكا الفيديو دعماً لإسرائيل وإجهاضاً لحقوق الفلسطينيين؟ "الجزيرة نت" (9 كانون الأول 2023). الرابط الإلكتروني: <https://rb.gy/tgl9t9>.

القطاع لأنهم غارقين في الفقر والبؤس، في تجاهل تام أنه ومن ورائه منظومة الاحتلال قاطبة السبب الأول والأخير لمعاناة الفلسطينيين منذ عقود طويلة. نستطيع توظيف هذه الثنائيات التبسيطية لتوضيح العلاقة مع قوى الاستعمار، إذ نقف نحن وبقية الشعوب المضطهدة في نصرة الحرية والعدالة والمساواة والتخلص من جرائم الاستعمار، فيما يقفوا هم بجانب كل نقيض للحرية والخير والعدالة، وإن تحدّثوا بغير ذلك. فنحن نتحدّث عن "الحرية التي لا مُقابل لها، الحرية التي هي نفسها المقابل".⁸

حرب كاشفة:

تمثّل القضية الفلسطينية وبضمنها أحداث السّابع من تشرين أوّل / أكتوبر حرباً كاشفة على كافّة الصّعد، إذ أنّها وضّحت بشكلٍ لا يقبل اللبس حقيقة الغرب وعمق فكره الاستعماري، وخطورة هذا الفكر على البشريّة، إذ أنّ القتل والإبادة والاحتلال والاستغلال كلها ممارسات مسموحة وفق قواعده، وتطبّق القوانين الدوليّة فقط عليه، إذ أنّه من صمّمها ويحقّ له الانتفاع بها، فيما على بقية الشعوب القبول بأحكام الغرب وقراراته، وويُؤلّ لمن يقاوم ويطلب الحرية أو التخلّص من نير الاستعمار والاحتلال، وإذ يُراد للفلسطينيين أن يبدوا أمثلة، لعلّ غيرنا من الشعوب لا يجرؤ على المقاومة، يتّضح أنّنا بالفعل أمثلة لمن يريد الحرية، ولمن يريد اختبار حقيقة الدّول الغربيّة. سقط العالم الغربي في هذا الامتحان الكبير، وسمح لدولة الاحتلال بممارسة أقصى درجات الإجرام والسّاديّة والفاشيّة ضدّ الشعب الفلسطيني.

اللّعب وفقاً للقواعد الدوليّة، والمواثيق الدوليّة لم يعد مقبولاً، إذ أنّ النّتيجة محسومة سلفاً، أن تلعب وفقاً لقواعد الغرب يعني أن تخسر دائماً، وأن ترهن مقدّرات البلد لصالح شركات الغرب لئلاّ يترك من ورائها الفتات. القوّة التي تدعمها القيم الإنسانيّة بما فيها الحرية والعدالة والانتصار للشّعوب المقهورة هي القادرة على فرض قواعد دوليّة أكثر عدالة، بحيث تستجيب لمطالب الشّعوب بالتحرّر من الاحتلال والاستعمار والأشكال الجديدة من العبوديّة، والتّمتع بالسيادة والثّروات، وإنجاز تنمية حقيقيّة.

فلسطين أصبحت رمزاً عالمياً لمقاومة الاحتلال والاستعمار والاستبداد، وأصبحت تمثّل الفعل الواضح والصّريح للضمير الإنساني الحقيقي، وهي تشقّ طريقها المؤلمة نحو الحرية والاستقلال، واستعادة حقّ الفلسطينيين في بلادهم التي هجروا منها، فهي تروي لمن يريد من الشّعوب قصة نضال وبطولة ووفاء للقيم الوطنيّة والإنسانيّة، وتبرهن على حقيقة الاستعمار وطريقة إزالته.

⁸ غسان كنفاني، مناظير وكاتب فلسطيني مشهور.